مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

٢ ـ الشـــوقيات

للدكتور زكي مبارك

معاير الأيام — قصائد سورية — قصائد لبنانية — مصرع شوقي — شعور شوقي بالوجود — بين أحمد شوقي وحافظ ابراهيم

معاير الأيام

هذا عنوان قصيدة صوّر بها شوقي صروف الحياة من عهد الطفولة إلى عهد المشيب ... ابتدأ الشاعر بحياة الطفل في « الكتب » ، والكتبُ كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية ، وهي كذلك في عُرف وزارة المعارف ، فهي تقول الكاتب العامة بعد أن كانت تقول المدارس الأولية . وكان العُرف المدرسي قبل سنين يعمّم كلمة الكتب بحيث تشمل حجرة الدرس ، ولو كانت في مدرسة عالية

وشوقي في هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال ، ويحسها أصدق إحساس

ألاَ حبذا صحبةُ الكتبِ وأحببْ بأيامها أحببِ
ويا حبذا صِبْيةٌ يلعبون عِنانُ الحياة عليهم صَبِي
كأنهم بَسَمات الحيـاة وأنفاس ريحانها الطيّب

وعبارة « عِنان الحياة عليهم صَبِيٌ » عبارة طريفة ، والمراد بصبا العنان هو الرقة واللين

ثم يلتفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون بالكتب كل الفرح ، ولا يرتاحون إليه كل الارتياح ، وكيف والأمر كما قال :

يُراح ويُغدَى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغربِ
إلى مرتعٍ أَلِفُوا غيره وراعٍ غريب العصا أجنبي

وهذان البيتان من أروع ما صوّرت به حياة الأطفال في رعاية المعلمين !

وصوّر اختلاف قوامهم باختلاف أسنانهم فقال :

فراخٌ بأيكٍ فمن ناهضٍ يروض الجناح ومن أزغب

وصوّر غفلتهم عن المصير المرتقب فقال :

مقاعدهم من جَناح الزمان وما علموا خَطَر المركب

وقد جاد الوحي على شوقي ببيتين في غاية من العذوبة والصدق ، أما البيت الأول فهو قوله في تلوين حيوية الأطفال :

عصافير عند تهجّي الدروس مهارٌ عرابيد في الملعبِ

وأما البيت الثاني فهو قوله في اختلاف الإحساس باختلاف أوقات الجَرَس :

لهم جرَسٌ مُطربٌ في السراح وليس إذا جـدّ بالمطربِ

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب الرنين ، وأن جرس الدرس بغيض الضجيج ؟

وأذكر من باب الفكاهة أني كنت أشرح لأحد نظار المدارس قيمة الطرافة في هذا البيت فقال : إن شوقي نسي جرس الغداء ! ثم قال شوقي :

جنون الحداثة من حولهم تضيق به سَعَةُ المذهب
هدا فاستبدّ بعقل الصبيّ وأعدى المؤدب حتى صبي

والغرض قد التوى على شوقي في هذين البيتين بعض الالتواء ، لأنه ساوَى بين الجنونين : جنون الأطفال وجنون المعلمين

وأخطأ شوقي في اختيار كلمة « المؤدب » ، والصواب أن يقول « المعلّم » . فهناك فرقٌ بين التأديب والتعليم ، فالتأديب هو التثقيف ، والتعليم هو التربيب . وفي كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين المؤدب والمعلم ، وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين

ثم نقل شوقي تلاميذه من المكتب إلى المدرسة ثم إلى الحياة فقال :

فياويحهم أهل أحسُّوا الحياة لقـد لعبوا وهي لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسم جرى في الأصول وروّى الفروع ولم ينضب
وداز الزمان فذال الصِّبا وشب الصغار عن المكتب
وجدّ الطِّلاب وكدّ الشبا ب وأوغل في الصعب فالأصعب
وعادتْ نواعمُ أيامـه سنينَ من الدأب المنصب
وعُذِّبَ بالعلم طُلّابُهُ وغصُّوا بمنهله الأعذب

والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة ، القصيدة التي قال فيها شوقي :

وكم منجب في تلقي الدروس تَلَقّى الحياةَ فلم يُنجبِ

فأرجو أن يلتفت إليها المتسابقون ، لأنها من غرر الشوقيات

قصائد سورية

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان ، فلنذكر اليوم أن الشاعر تحدث عن سورية في قصائد جياد ، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال :

بني سورية التثموا ليوم ... خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عنا ... وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نلنا كلانا اليومَ إلا ... عراقيب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فمهرتموها ... دماً صَبَغ السباسب والتلالا
وقمتم دونها حتى خضبتم ... هوادجها الشريفة والحجالا
دُعوا في الناس مفتوناً جباناً ... يقول : الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقهم بالروح قومٌ ... فتسمع قائلاً ركبوا الضلالا

ومنها القصيدة الأموية ، وقد أشرنا إليها في المقالة الماضية . ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد ، فما نظم شاعرٌ أروع مما نظم شوقي في « نكبة دمشق » ، ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق :

لحاها الله أنباءٌ توالتْ ... على سمع الولىّ بما يَشُقُّ
يفصّلها إلى الدنيا بريدٌ ... ويجملها إلى الآفاقِ بَرقُ
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دُكّتْ ... وقيل أصابها تلفٌ وحَرْق
ألستِ دمشق للاسلام ظئراً ... ومرضعةُ الأبوّة لا تُعَق

وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة بنساء دمشق :

بَرزْنَ وفي نواحي الأيك نارٌ ... وخَلْفَ الأيك أفراخ تُزَقُّ
إذا رمنَ السلامةَ من طريقٍ ... أتتْ من دونه للموتِ طُرْق
بليل للقذائفِ والمنايا ... وراء سمائه خطفٌ وصَعْق
إذا عَصَف الحديد احمرّ أفقٌ ... على جَنَباتِهِ واسودّ أفق

ثم توحي إليه ملائكة الشعر أن يقول :

بني سورية اطّرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الأحلامَ ألقُوا
فمن خِدَع السياسة أن تُغَرُّوا ... بألقاب الإمارة وهي رِقُّ
وكم صَيْدٍ بدا لك من ذليل ... كما مالتْ من المصلوب عُنْق
نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا في الهمّ شرق
ويجمعنا إذا اختلفتْ بلادٌ ... بيانٌ غيرُ مختلف ونُطْق
وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقُوا
ومن يسقى ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يُسقَوا ويَسقُوا
ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ ... وفي الأسرى فدىً لهم وعتق
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يَدٍ مضرّجة يُدقُّ

هل يحتاج هذا الشعر إلى شرح ؟ هيهات !

قصائد لبنانية

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقي السورية وقصائده اللبنانية ، فهو في الشام يعاني نارَيْن : الذكريات للأمجاد الأموية ، ونار الحقد على الاستعمار الفرنسي ، وقد جاهده السوريون أصدق الجهاد ، وعانَوْا في دفعه مكاره لا تطاق

ولا كذلك حال شوقي في لبنان ، فهو هنالك شاعر يصدح فوق أفنان الجمال ، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد ، لأن الظواهر كانت تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق

كان لبنان لعهد زيارات شوقي وطن الشعر والجمال والأمان والرخاء . وكان اللبنانيون على فطرتهم الأصيلة من الترحيب الصادق بكل من يزور وطنهم الجميل ، فأنس بهم شوقي كل الأنس ، واطمأن إليهم كل الاطمئنان

أيام شوقي في سورية كانت أيام جهاد ، أما أيامه في لبنان فكانت أيام شهاد

كان شوقي يكره أن يقول إن شبابه إلى أفول ، وإن جاوز الستين ، ثم شاء شيطانه أن ينقله إلى « زحلة » وطن الرحيق ، ومعه المحامي فكري أباظة والموسيقار محمد عبد الوهاب . وفي لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن يبكي الشباب الذاهب فيقول :

شيّعتُ أحلامي بقلبٍ باكِ ... ولمحت من طُرُق الملاح شباكي[1]
ورجعتُ أدراجَ الشباب ووَرده ... أمشي مكانهما على الأشواك
وبجانبي واهٍ كأن خفوقه ... لما تلفّت جهشة المتباكي
شاكي السلاح إذا خلا بضلوعه ... فإذا أُهيبَ به فليس بشاكي
قد راعه أني طويت حبائلي ... من بَعد طول تناولٍ وفكاك
ويح ابن جنبي ، كل غاية لذة ... بعد الشباب عزيزة الإدراك
لم تبق منا يا فؤاد بقيةٌ ... لفتوّةٍ أو فضلةٌ لعراك

(١) في الديوان « لمحت » وهي غلطة مطبعية لم ينتبه لها أكثر من نقلوا هذه القصيدة عن الديوان

كنا إذا صَفَّقتَ نستبقُ الهوى ونَشُدُّ شدَّ العُصبة الفُتّاك
واليومَ تبعثُ فيَّ حين تهزّني ما يبعث الناقوس في النُّسّاك

وكان الرأى أن تُلقَى هذه القصيدة فى حفلة أعدها أهل زحلة لتكريم شوقى ، وكان الأستاذ فكرى أباظة هو الأثير عند شوقى حينذاك فى إلقاء شعره البليغ ، فاعترض الموسيقار عبد الوهاب قائلاً إن هذه القصيدة للغناء ، وليست للالقاء ، ثم صَدَح بصوته الرنّان :

يا جارةَ الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثّلتُ فى الذكرى هواك وفى الكرى والذكريات صدى السنين الحاكى
لم أدر ماطيبُ العناق على الهوى حتى ترفّقَ ساعدى فطواك
لا أمس من عمر الزمان ولا غدٌ جُمِع الزمان فكان يوم لقاك[1]

وفى هذه القصيدة يقول شوقى على عادته فى التخوّف من عجّب الغيوب :

لبنان ردّتنى إليك من النوى أقدار سير للحياة دِراكِ
تمشى عليها فوق كل جفاءة كالطير فوق مكامن الأشراك

مصرع شوقى

فى مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرفٌ مختوم كُتِب عليه : « مصرع شوقى » فما الذى يحتويه ذلك الظرف المختوم ؟

فى إحدى المصريات من صيف سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ حدثنى الدكتور طهٰ حسين أن شوقى أسفٌ أبشع الإسفاف بقصيدة نشرتها جريدة المقطم عن هوى شوقى فى لبنان

وأعترف أنى كنت أرى ما يرى الدكتور طه فى تلك القصيدة ومذاك ، فقد نُشِرت فى المقطم على أسوأ حال من التحريف

ثم دارت الأيام وعرفنا أنها أجود مما كنا نتوهم ، وأنها فى كل خاطر وعلى كل لسان فى لبنان

ثم دارت الأيام مرةً ثانية فعرفنا أن الأريحية اللبنانية سمحت بأن يَكثُر من يقولون إن شوقى عناهم بذلك القصيد ، القصيد الذى يَهتف :

وأغرّ أكحلَ من مَهاة «بكفيّة» عَلِقَتْ محاجرُه دمى وعَلِقتُه
لُبنانُ دارتُهُ وفيه كِناسُهُ بين القنا الخطّار خطّ نَحيتُهُ
السلسبيلُ من الجداول وِردهُ والآسُ من خُضر الخمائل قوتُه
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يُطل فأتيت دون طريقه فزحمتُه
فازورّ غضبانا وأعرض نافراً حالٌ من الغِيد الملاح عرفتُهُ
فصرفت تلعابى إلى أترابه وزعمتُهنّ لبانتى فأغرتُه
فشى إلىّ وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادنى وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به، على حَرَم الهدى لابن البَتُول وللصلاة وهبتُه

إلى آخر القصيد

شعور شوقى بالوجود

بين قصائد شوقى فى سورية ولبنان وقصائده فى البلاد التركية والفرنسية آمادٌ طوال ، ومع هذا نجد أن إحساسه بالوجود على اختلاف الأزمان غايةٌ فى القوة والبريق

وهل ننسى أن الجرائد المصرية لم تجد عند مصرع باريس فى الحرب الحاضرة غير ما توجّع به شوقى لباريس فى الحرب الماضية ؟

ولقد أقول وأدمعى منهلّةٌ باريسُ لم يعرفك من يغزُوكِ
زعموك دار خلاعة وجمالة ودعارة ، يا إفكَ ما زعموكِ
إن كنتِ للشهوات رِيّا فالعُلا شهواتُهنّ مروّياتٌ فيكِ

ومن هذا الكلام نعرف أن للعُلا شهوات أعنف من شهوات الأهواء .

وقصيدة شوقى فى غابة بولونيا قديمة العهد ، وهى مع ذلك لطيفة النَّفَس ، ذكيّة الروح

وأبياته فى « شِبْه أمينة » أبياتٌ لطاف ، وقد رأيت بعينى صورة أمينة فى غرف كثيرة من دار شوقى ، بدون استثناء لحجرة الاستقبال ، وهى البُنَيّة التى قال فيها ذلك الأب الحنّان :

وكم قد خلَتْ من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخاليهْ

ثم ما ذا ؟

ثم يبقى الحديث عن القصيدة التى حفظها غريم شوقى فى الشعر والبيان ، وهو حافظ ابراهيم ، مع تفاصيل يوجبها التاريخ ، ليعرف المتسابقون سرائر هذين الشاعرين ، وليواجهوا يوم الامتحان مدّرعين بالبصيرة واليقين . والله عزّ شأنه هو القادر على أن يجعلهم طلائع الفكر والرأى فى هذا الجيل .

زكى مبارك

(١) هذه القطعة مشهورة جداً ، ولها ترتيب غير هذا الترتيب .